تطول جبالكم منها الروابي وتعلو هامكم منها العجوب
رضيتم بالقعود على الدنايا ومنهجكم الى العليا لحيب
ترومون الفخار على الاعادي وعن خطط الفخار لكم نكوب
وترجون الخلاص من احتلال وعار الاحتلال بكم لصيب
كما يرجو الفريس خلاص نفس وقد علقت من الاسد النيوب
اتيت لاستطب فزاد سقمي وقد يفضي الى الداء الطبيب

لها بقية

النشوء العقلي والاجتماعي(١)

في مصر

اخذ التقدم يرتقي في مصر بعد ان كانت مثل جميع البلاد الاسلامية لقلة العلم والزهد في معاناة الحياة التجارية تقول ان الحياة الدينية والمدنية شيء واحد وان في القرآن والسنة احكام الحياتين وفي مضامينها جميع القوانين. اما الاديان السماوية الاخرى فقد رأت من الضرورة الفصل بين السلطة الزمنية والروحية ولم يتسن للاسلام ان يشذ عن هذا القانون. ومن تأمل ما جرى في مصر منذ خمسين سنة فقط وقاس ما نتج من دخول التمدن الى هذا القطر خلال هذه المدة يدرك بان النشوء يكون على اتمه بعد قليل وان هذا التغيير يجري تحت طي السكون جارياً في مجراه الطبيعي من دون اكراه ولا اعنات. ومع هذا ظن كثير من المفكرين بان البلاد الاسلامية تبقى بعيدة عن التمدن. حملهم على هذا الظن ما رأوه من شدة تحمس المسلمين لدينهم وخضوعهم لما امر به القرآن خضوعاً اعمى

وحجة اهل الاسلام في هذا الباب ان التمدن الاسلامي لما كان منتشراً اكثر من غيره كانت العقائد سالمة لم تمس وراسخة لم تزعزع الا انه يقال لهم ان علماء العرب في تلك العصور لم يكونوا يدرسون سوى علوم مقررة قام بها تمدن الشعوب الاخرى ولم يقتربوا من الكتب التي حوت علوماً غيرها اومن المصنفات الادبية والصناعية التي تفتح على العقل باباً جديداً.

(١) عربت لجريدة الظاهر اليومية ثلاث مقالات وردت في جريدة الديبيش كولونيال الفرنسوية بقلم الدكتور جورج بك سمنة فاشار بعض الفضلاء ان انقل للمقتبس ماله علاقة بموضوعه منها تحفظ ذكرى نافعة لمن كتبت لهم

على ان التمدن العربي لم تعهد له طفولية اذ ولد كاملاً وبلغ رشده في قرنين فكان من الاسلام كما كان من سائر الاديان ان عدّل من امتداد تأثيرات الذكاء وتقهقره في آن واحد وذلك مما لا يتأتى ان يجدد اليوم عهده . لان تحاكك البلاد الاسلامية بالعنصر الاوربي وانتشار العلم وضروريات الحياة الجديدة ستؤدي ولا جرم الى تحرير العقول من قيودها وتنتهي بفصل السلطة الدينية عن السلطة الزمنية لامحالة على نحو ما نرى من سرعة النشوء الذي بدأ الآن يظهر في مصر آخذاً نحو المدنية الحديثة .

ومما لا شك فيه ان الاسلام بعيد ان يضمحل الآن بل انه على العكس ينتشر ويزداد اشياعه ويتجدد له انصار حتى في اوربا واميركا حيث تجدله الآن طوائف من المسلمين ولكن هذا السير سيكون ابطأ من ذي قبل ويقوم المسلم بفروضه الدينية سراً . ثم يكون للمسلم كما للمسيحي لعهدنا حياتان احداهما ظاهرة والثانية باطنة ولا تكون الثانية سبباً في التشويش على الاولى . يقول المسيو هوداس « من علماء المشرقيات من الفرنسيس » ان المتعلمين يجبون ان يريحوا عقولهم بعض الراحة وذلك بان يتناسوا ان لهم عقولا . ولذلك تبقى الاديان الرئيسة في اوربا سنين كثيرة بعد على حالة ملائمة بعض الملائمة

فنشوء الجنس الاسلامي لا منقاص من وقوعه لانه يجري بطبيعة الحال والدين لايكون عائقاً له في بادىء الامر لان جميع الديانات في الاصل تعمل كأنها اعنة تحول دون كل تقدم على ان اليهودية والنصرانية اللتين لهما تعاليم ضيقة وهما اقل حرية من الدين الاسلامي لم يحولا دون نشوء الاجناس الاوربية .

يمثل الاسلام صورة مجتمع ديمقراطي فلا يعوقه عائق من سلطة الاشراف ولا عائق من سلطة رجال الدين ولا عائق من البابوية اى ليس فيه رئاسة دينية . وهذه العوائق هي من الاسباب المؤخرة فلا يخشى منها ان تؤثر في نشوء العنصر الاسلامي

ومنذ سقوط الدولة العباسية اصبح الخلفاء لا يجمعون في شخصهم وحدهم بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية « الدينية والسياسية » واخذت الشعوب الاسلامية تنمو وتنتشر في اطراف العالم بامره ولا تخضع لسلطان واحد

ولقد عرف التعصب في جميع الاديان واعني بالتعصب ذلك الاحساس الذي يحمل صاحبه على الجهاد دفاعاً عن دينه وحفظ التاريخ حوادث هائلة من هذا القبيل لكل طائفة من طوائف اهل الاديان وردد ما سكرت به من حب الغلبة وبسطة السلطان امة الاسلام فعلى العكس من ذلك ظهرت فيه مظاهر التسامح اكثر من غيره مما يرجع الفضل فيه الى اسباب خاصة بالاقليم الذي قامت في وسطه تلك الديانة او هو خاصة من خواص

العنصر الذي دان بها

وكان الداعي الى المذابح التي أُهرقت فيها الدماء في هذا الدور الجديد من الهجرة بواعث سياسية لا بواعث دينية . والدليل على ذلك انك تجد في الشرق عناصر مسيحية كما فيه عناصر اسلامية وترى فيه الجامع مجاوراً للكنيسة والمسلم يعيش مع المسيحي وصلاتهما حسنة ومنافعهما متبادلة . وليس في الشرق ما يعد خطراً على نشوء الامة الاسلامية السريع سوى جهل السواد الاعظم ممن لم يرزقوا حظاً من الذكاء يكفي لتكبير عقولهم فيراقبون اعمال رؤسائهم مراقبة فعالة ويعارضون اذا دعت الحال الى معارضة سوء استعمال الاحكام

ونذكر من الاسباب التي تؤخر سير التقدم الى الامام قلة الاتفاق بين المصري المسلم والمصري غير المسلم . فان الاول لا يعترف للثاني بان يقول عن نفسه انه مصري ويزعم ان مصر له دون غيره . نعم ان المسلمين اكثر عددا ولكن المسلمين مع غير المسلمين في مصر من حيث التهذيب العقلي ومن حيث وجود طبقة عالية يكادون يتعادلون ويتوازون وكذلك نفوذ الطائفتين وتأثيراتهما . واقول هذا وانا على يقين من ان التعصب الاسلامي غير ممتد الرواق في مصر بحيث يحول دون سير المسلمين نحو الارتقاء واذا فرض وجوده بقوة التقاليد فالتربية تكفي لازالته .

قلت ان الاسلام بعيد عن ان ينافي التمدن بل هو على العكس دين يسمح لمتحله ان يقصد الى الارتقاء مطلق الحرية والتصرف . ومن المعلوم ان المسلمين ليسوا تابعين لامام واحد وانه ليس من ضرورة في الدين ان يتبعوا خليفة واحداً يتولى السلطة السياسية والسلطة الدينية فتوسيد الامر الى رجل يجمع بين السلطتين متعذر في الاسلام . واني لاعرف من الانكليز والاميركان من دانوا بالاسلام فما عاقتهم وطنيتهم الانكليزية والاميركية عن التفاني في نصرة دينهم الجديد فتراهم خاضعين لحكوماتهم ونظامات أمتهم عاملين بشعائر الدين الذي انتحلوه

كان للعلم مقام جليل بين المسلمين بحيث كان من يعرف القراءة والكتابة يعد من الطبقة الراقية ويحترمه الناس ويبجلونه . وليس لرجال الدين عند المسلمين واعني بهم العلماء والائمة ما لامثالهم عند اهل النصرانية . بل تؤلف تلك الفئة في الاسلام من جميع الناس على السواء مهما كانت طبقتهم . فاذا احرزوا قسطاً من العلم يخضع لهم الناس وان لم يكن في ايديهم شهادات تؤذن بان لهم حق التسلط عليها .

والباعث الثاني على نشر التمدن بين المسلمين اختلاطهم باوربا فان كل من رأوا انتشار التمدن المصري وقدروا تأثير السياحات الى اوربا حق قدرها وعرفوا ما ينتج من اختلاط

المسلم بغيره في هذه السياحات يتجلى له الشوط البعيد الذي قطعته الامة المصرية والتقدم الذي سعى اليه هؤلاء السائحون فصح ان يدعوا من الممهدين لسبيل الحضارة والتمدن .

والفرق في الحقيقة بين هؤلاء السائحين وبين المقيمين في البلاد جوهري محسوس اذ ان السياح سواء كانت رحلتهم للنزهة او التجارة قد غيروا شكل البلاد وكان منهم ان جعلوا مصر اليوم تخالف مصر منذ ستين سنة وبين هذين الدورين بون شاسع كما لا يخفى على الناظر البصير. ومن يجرأ ان يشبه بلاد الجزائر اليوم بالجزائر قبل ان يفتحها الفرنسيس؟ ومثل ذلك يلاحظ في جميع البلاد الاسلامية حتى ان مراكش لتمس باصبعها المدنية الرافعة في جوارها اعلامها. وساكن الشاطئ اسمى عقلا ومدنية من ساكن الداخلية لانه يختلط على الدوام بالعناصر الراقية وينال بذلك علما لا يناله سكان الوسط

اعتبر ذلك في اوربي يتوغل في داخلية مراكش فان المسلمين يسبونه ويشتمونه . واذا كان الاوربي في صحبة مراكشي تهذبت نفسه بالاختلاط بالاجانب فان هذا يحاول ان يشرح للاوربي خطأ ابن دينه مستدلاً على دعواه بجهل مواطنه وانه ما زال على الفطرة متعصباً ومتشبعاً بافكار أمته القديمة

وبعد فان تهذيب المرأة سيكون من اعظم العوامل في المدنية الاسلامية . ولا يسعنا في هذا المقام الا ان نعترف بأن ما تم من الارتقاء لبعض الطبقات المنورة في المسلمين كان الباعث الاكبر عليه تأثير تربية المرأة . لان الشريعة المحمدية خولتها من الشعور ما تعرف به كرامتها لتكون مستقلة ولأن محمداً « صلوات الله عليه » اراد انهاض المرأة من سقوطها الذي كانت فيه قبل الاسلام فسامح بتعدد الزوجات . ومن المحقق ان اسباباً شديدة كانت تقضي بنيلهن هذا الامتياز . ذلك ان في تعدد الزوجات مضاعفة الامة ونموها وتكثير سواد الموحدين مما جبين اثره في هذه الامة . نعم كان تعدد الزوجات من الدواعي الى تجنب الفسق فاستطاعت بذلك المرأة التي تحدثها نفسها بمن في خارج بيت زوجها ان تجد لها من الشرع نصيراً يجعلها في حل من التزوج ممن تحب . وبهذا لم يعهد بين المسلمين الزواج غير الشرعي ورفع عنهم عار التسري واضطروا الى احترام الابكار في بيوت غير بيوتهم

والدليل على هذا بانه منذ قل تعدد الزوجات في البلاد التي نال اهلها نصيباً من التعلم اصبحت بيوت التجور مملوءة بالوطنيات المسلمات بعد ان كان اهلها من غير بنات البلاد وقامت بيوت المهر الوطنية تجاري مواخير الدخلاء وتتغلب عليها

ظلت المرأة المسلمة راضية بما قسم لها من مال زوجها بعد وفاته الى ان استنارت بقبس من المعرفة فانشأت تدرك بأن حظها هذا يجعل عليها بانها دون الرجل في المنزلة . وليس

لنلاحظ اليوم ان الرجل المسلم في البلاد المتحضرة لا يتزوج بغير زوج واحدة وقلما كانت الزوج فيما مضى تقضي اوقاتها مع زوجها بل تبقى في خدرها ولا تخرج منه الاَّ محجبة مبرقعة ولا تزور غير النساء اذ لا يزورها غيرهن فتخلصت المرأة اليوم من هذه العادات وهذا الزوج مهما بلغ من تدينه يتسامح مع زوجه لتخرج لمقابلة الناس على الطريقة الاوربية.

وهذا مما احدث في الرجل ايضاً احسن تاثير لانهُ بالاختلاط المتواصل مع المرأة في البيت اخذت اخلاقه تتدمث وعواطفهُ تلطف وترق واقتبست المرأة المسلمة بما عرفت به من الرقة المعهودة عن المرأة الاوربية — ما نزلت هذه بلاد الشرق مع زوجها الموظف — اساليب الانبساط والبهجة اللذين ما كان زوجها يجدهما من قبل الاَّ في البيوت الاوربية

ومن الغريب ان تعدد الزوجات الذي كان في القديم خاصاً بالغني اصبح لعهدنا عادة من عادات الفقير لان هذا يستخدمهن آلات ينتفع بها في أموره المعاشية فاذا كان لهُ عدة زوجات يكنَّ لهُ بمثابة اجيرات يحرثن ارضه ويزرعن زرعه ويوفون عليه ماله فلا يحتاج بعدئذٍ الى ايدي العامل والزارع

لا جرم ان تعليم المرأة المسلمة سيكون من الدواعي الرئيسة في نشوء العنصر الاسلامي ويساعدها على ذلك فقدان الرئاسة الدينية عند المسلمين وخلاص المسلمة من التأثيرات السيئة التي ترجع بها القهقرى اذا تولى بعض امرها احد خدمة الدين

وهنا نلم بالارتقاء الاقتصادي في المسلمين لانه احدث تغييراً في حالتهم . فقد ظلوا قروناً كثيرة بعيدين عن الحركة الاقتصادية محتفظين بتقاليدهم في متاجرهم فكان منهم لما رأوا تكاثر الاعمال المالية ان عقدوا الصلات التجارية مع غيرهم من الشعوب . واي واسطة احسن في قلب العادات القديمة من المرابأة . فقد كان المسلمون لا يقولون بجمع رؤوس اموالهم وقلما كانوا يستدينون بالربا فانشأوا اليوم يستدينون بالربا ولكنهم لا يدينونه فنجحت بذلك اعمالهم واخذوا يملكون اموالاً طائلة اضطرتهم الى استثمارها والمسلمون اليوم يتعاطون جميع اعمال المصارف والخصم . وانك لترى الآن في مصر شركات عظيمة ورؤوس اموالها من اهل الاسلام خاصة

وجملة القول ليس الاسلام كما رأيت جامداً لا يتحرك بل انه يجري في نشوئه بحسب الحاجات والضرورات الحالية وانا موقن بانهُ يضرب الآن نحو المدنية ويسعى لها سعيها بطبيعة الحال